معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد

مطبوعات برنامج إعداد المفسِّر (٣)

تفسير الوصية الأولى

أوَّلُ وَصِيَّةٍ إلهيَّةٍ استهلَّت بها الحياةُ الدنيا

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري

تفسير الوصية الأولى

© عبدالعزيز داخل المطيري ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المطيري ، عبدالعزيز داخل
تفسير الوصية الاولى. / عبدالعزيز داخل المطيري .- الرياض ، ١٤٣٨هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٢٧٨٣-٩

١- القران - مباحث عامة ٢- القران - تفسير أ.العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٨/٦٣٠

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٦٣٠
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٢٧٨٣-٩

حقوق الطبع محفوظة

إلا ممن أراد طباعته لتوزيعه مجانا

الطبعة الأولى

محرم ١٤٣٨هـ

معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد

afaqattaiseer 0505941199 www.afaqattaiseer.com
afaqattaiseer afaqattaiseer afaqattaiseer@gmail.com

تفسير الوصية الأولى

أوَّلُ وَصِيَّةٍ إلهيَّةٍ استهلَّت بها الحياةُ الدنيا

تأليفُ

عبد العزيز بن داخل المطيري

معهد آفاق التيسير
للتعليم عن بعد

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الوصية الأولى

الحمد لله الذي هدانا بكتابه، وشرّفنا بخطابه، وعلّمنا ما لم نكن نعلم، وآتانا من فضله العظيم، وأرسل إلينا رسوله الكريم، الذي بلّغ البلاغ المبين، وبيّن لنا شرائع الدين، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتّبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فهذه كلمات في هدايات القرآن، وما تضمنته بعض الآيات الكريمة من معانٍ جليلة، وبشارات عظيمة، استخلصت لبّها من زُبد أقوال العلماء، وجمعت فيها ما تفرّق من غرر كلماتهم، ولطائف استدلالاتهم، وأضفت إليها ما فتح الله به من المعاني والإشارات، والفوائد والتنبيهات، ورتّبتها ترتيباً ميسّراً مقرّبا، وعرضتها عرضاً مختصراً مهذباً؛ واجتزأت عن التطويل بالاختصار، وعن الإسهاب بالاقتضاب، وأسأل الله تعالى أن يتقبّلها بقبول حسن، وأن يبارك فيها إنه هو الكريم الوهاب.

على الله توكلنا . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهاب.

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

تضمّنت هذه الآية الكريمة أوّل وصيّة بلغتنا أوصى الله بها الجنس البشري عند بدء هذه الحياة الدنيا؛ وهي وصيّة عظيمة الدلائل، جليلة المقاصد، لطيفة الإشارات، تضمّنت إرشاداً عظيماً ووعداً كريماً تقوم عليهما سنّة هذه الحياة، من لدن بدئها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فمن عقل هذه الوصية فقد أدرك معرفة أعظم سنن الحياة؛ وأبصر طريق النجاة، وعرف كيف يسلك الصراط المستقيم المفضي إلى رضوان الله وجنّات النعيم، وعرف كيف يتّقي الآفات والمكائد، وكيف ينجو من المزالق والمصائد، وكيف يحيا حياة طيّبة، يطمئنّ فيها قلبه، وتقرّ بها عينه، وتحسن بها عاقبته.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾

القائل هو الله تعالى، والضمير إذا عاد إلى مفرد وصيغ بصيغة الجمع فهو للتعظيم.

والخطاب: لآدم وحواء وإبليس، وهذا أمر كونيّ قدّره الله على آدم وزوجه فسرى أثره على ذريّتهما من بعدهما، وسيبقى أثره إلى آخر يوم من أيام الحياة الدنيا.

وقد زوّدهم الله عند هبوطهم بهذه الوصيّة العظيمة التي تصلح لمن خوطب بها في ذلك الوقت، ولمن أتى بعدهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

قال ابن جرير رحمه الله: (وذلك وإن كان خطابًا من اللهّ جلّ ذكره لمن أهبط حينئذ من السّماء إلى الأرض، فهو سنّة اللهّ في جميع خلقه)ا.هـ.

ولفظ الهبوط له أثر لا يخفى على النفس المؤمنة والقلوب المخبتة؛ فتحنّ إلى ما كان عليه الأبوان من القرب والتكريم، والعيش الكريم، والسلامة من الأنكاد واللأواء؛ فتحنّ إليها كما يحنّ الفرع إلى أصله، والمرء إلى أهله.

كما قال ابن القيّم رحمه الله تعالى:

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلّم

فنحن في الدار التي اقتضاها هذا الهبوط؛ وما تبع هذا الهبوط من الابتلاءات والمحن، واللأواء والفتن.

والسعيد الموفّق هو الذي يتوق إلى دار العلوّ والخلود، ويحنّ إلى ما كان عليه أبواه من القرب والتكريم، ويفقه السبب الذي أخرجا به من الجنّة؛ فيكون حذراً من مخالفة أمر الله، حريصاً على اتّباع هداه؛ فيقوده حرصه إلى الأخذ بما أخذ به أبواه من أسباب النجاة بالتوبة إلى الله، والإقرار بالذنب، وطلب العفو والمغفرة والهداية ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

والشقيّ المخذول هو الذي يتعامى عن بذل أسباب النجاة، ويوغل في اتبّاع هواه؛ حتى يلاقي جزاء غيّه وبغيه وإعراضه عن هدى الله.

﴿مِنۡهَا﴾ أي من الجنّة التي في السماء؛ فهبطوا منها إلى الأرض على كيفية الله أعلم بها.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ وهذا وعد وتبصير بأنّه سيأتينا هدى من الله.

﴿مِّنِّي﴾ أي من الله، لا من غيره؛ فالهدى الذي ينفع صاحبه وينجّيه هو الهدى الذي يكون مصدره من الله؛ وكل هدى ليس من الله فهو ضلال؛ لا يعدو أن يكون اتّباعاً للظنّ والهوى؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ فجعل الهدى منه جلّ وعلا، وما يقابله هو اتّباع الظنّ وما تهوى الأنفس.

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهذا أسلوب حصر مؤكد.

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

وهذا كلّه يدلّ دلالة واضحة على أن الهدى النافع المنجي هو الهدى الذي يأتي من الله تعالى، وأن ما سواه فإنما هو اتّباع للهوى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

ومصداق ذلك في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربّه جلّ وعلا أنّه قال: «**يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**» أخرجه الإمام مسلم.

وهذا يشمل جميع ما يحتاجون إلى الهداية فيه.

وهذا يفيدنا فائدة جليلة في منهجنا في الحياة وتعاملنا مع الأحداث، وكيف نصنع فيما نبتلى به من الفتن والمحن وتقلّبات الأمور ومكائد الأعداء، وكيف نميّز الناصح الصادق من الغرور الكاذب، ولو أضفى على قوله من زخرف القول ما أضفى، ولو قاسمنا بالله إنه لمن الناصحين، ولو كان صاحب مكانة سابقة، وذا علم وتصدّر.

فإننا نعرض تلك الوصايا والنصائح على الهدى الذي أتانا من الله؛ فما وافقه فسيكون له نوره وبهجته وطمأنينته، وما خالفه فسرعان ما ينكشف زيفه لمن كانت له بصيرة بهدى الله، فإنّ المؤمن المتّبع لهدى الله يجعل الله له في قلبه نوراً وفرقانا يميّز به الحقّ من الباطل، ويكشف له زيف المزيّفين، وإن انخدع به من انخدع ، وإن اغترّ به أصحابه وظنّوا ما يأتونه حسناً ورشداً، فإنّ الحقّ والتبيّن يورث الطمأنينة واليقين بحسن العاقبة لمن اتّبع الهدى؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٤﴾.

ومن أسباب ذلك أنّ المؤمن لديه أصول بيّنة محكمة يعرفها من هدى الله، تدعو إلى عبادته تعالى وتوحيده، والخضوع له وتمجيده، وتعظيم أمره، وتصديق وعده، وتدعو إلى المحاسن والمكارم، وتنهى عن القبائح والمآثم، وغير ذلك من الأصول المحكمة التي لا يمكن أن تنخرم؛ فيعرفها المؤمن ويوقن بأنّ ما يخالفها ضلال وباطل؛ فإذا أتى المبطل بزخرف قوله ليغرّ به من يستمع إليه عرف المؤمن من كلامه ما يخالف الأصول البيّنة التي لديه؛ فاحترز منه ولم يفتنه قوله.

وأمّا الجاهل فإنّه ربّما اغترّ بزخرف القول ووجد في أقوالهم ما يوافق هوى نفسه فيتبّعه ويظنّه حقّا؛ فإذا ذكّر بآيات الله البيّنة الواضحة أعرض عنها وأقبل على ما تهواه نفسه، حتى يبتلى بأن يزيّن له سوء عمله، والعياذ بالله.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾.

والإعراض عن ذكر الله جريمة متوعّد عليها بالنقمة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ فيه تبصير للمخاطبين به ولمن بعدهم بأنهم سيأتيهم هدى من الله؛ وقد وقع هذا الوعد؛ فكلّ أمّة من الأمم قد أتاها هدى من الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾.

ونحن قد جاءنا أعظم الهدى من الله؛ فأرسل الله إلينا خير رسله وأعظمهم بركة وأحسنهم بياناً، وأنزل معه أفضل كتبه، وأعظمها هداية وبركة، وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مرسل من الله، والقرآن منزّل من عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

- وقال جل وعلا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾.

فنصيب هذه الأمّة من الهدى هو أعظم نصيب أعطيته أمّة من الأمم، ولذلك كانت خير أمّة أخرجت للناس، وكان أتباع النبي صلى الله عليه وسلم أكثر أتباع الأنبياء، فكانوا أكثر أهل الجنّة.

فالهدى الذي أتانا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن القرآن كلّه هدى من الله.

قوله تعالى: ﴿هُدَى﴾

الهدى هنا: البيان والإرشاد.

وهدى الله على أنواع؛ كما قال أبو العالية الرياحي رحمه الله: (الهدى: الأنبياء والرسل والبيان). رواه ابن جرير.

وهذه كلمة جليلة من هذا التابعيّ الجليل.

فالأنبياء والرسل هم أصل بيان الهدى، وما معهم من الكتب التي بعثهم الله بها فيها هدى ونور.

وأمّا البيان فهو معنى جامع لأنواع:

- **فمنه البيان الذي تقوم به الحجّة،** وهو كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي شرحه.

- **ومنه التذكير الذي يوعظ به المرء**؛ فيذكّره بما كان يعرفه من الهدى، وهذا التذكير له أنواع كثيرة؛ فمنه التذكير بالقرآن، ومنه التذكير بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وبأقوال الصالحين ووصاياهم، ومنه واعظ الله في قلب كلّ مؤمن.

- **ومنه التذكير ببعض الأقدار المؤلمة** كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (التّذكّر اسمٌ جامعٌ لكلّ ما أمر اللهّ بتذكّره).

- **ومنه التذكير بالآيات الكونية**، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾؛ فقدّم الفائدة الدينية وهي التذكرة على الفائدة الدنيوية وهي متاع المقوين تنبيها على تقديم مراد الله تعالى على مراد العبد.

ومن البيان: العبر والآيات التي يراها المرء في الآفاق وفي نفسه، وما يرى من عقوبات المخالفين لهدى الله، والسعيد من وعظ بغيره، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

قال الأمين الشنقيطي: (فجعل تعمير الإنسان عمرًا يتذكّر فيه وينيب إلى ربّه حجّةً عليه كالرسول، فعلينا جميعًا ألا نضيع أعمارنا، ونعرف قدر قيمتها).

وقال ابن تيمية: (﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي قامت الحجّة عليكم بالنّذير الّذي جاءكم وبتعميركم عمرًا يتّسع للتّذكّر).

ومن البيان أيضاً: الأمثال التي يضربها الله للناس؛ فمن عقلها تبيّن له الهدى وانتفع بها، كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وقد بيّن الله تعالى أنّ من مقاصد ضرب الأمثال أن نتذكّر بها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ومن البيان: الوصايا التي يوصي الله بها، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾؛ فإنّ من أعظم مقاصد الوصايا: التذكر.

ومن أنواع بيان الهدى: واعظ الله في قلب كلّ مؤمن، ذلك الواعظ الذي يذكّره بما يجب عليه فعله وما يجب عليه تركه؛ فإذا حدّثته نفسه بمعصية أو همّ بها ذكّره واعظ الله في قلبه بأن يدعها لله؛ وأن يخشى عقابها وعذابها ومغبّتها، وأن يستحيي من الله؛ فلا يقابل إحسانه بإساءة العمل؛ فإن استجاب وانتهى عمّا همّ به من المعصية أمر الله ملائكته أن يكتبوها له حسنة لأنّه لم يتركها إلا لله.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه عن رسول اللهّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «**ضرب اللهّ مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصّراط سوران فيهما أبوابٌ مفتّحةٌ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاةٌ، وعلى باب الصّراط داع يقول: أيّها النّاس، ادخلوا الصّراط جميعًا، ولا تتعرّجوا، وداع يدعو من فوق الصّراط، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنّك إن تفتحه تلجه، والصّراط الإسلام، والسّوران: حدود اللهّ، والأبواب المفتّحة: محارم اللهّ، وذلك الدّاعي على رأس الصّراط: كتاب اللهّ، والدّاعي من فوق الصّراط: واعظ اللهّ في قلب كلّ مسلم**».

قال ابن تيمية رحمه الله: (فقد بيّن في هذا الحديث العظيم – الّذي من عرفه انتفع به انتفاعًا بالغًا إن ساعده التّوفيق؛ واستغنى به عن علوم كثيرة – أنّ في قلب كلّ مؤمن واعظًا، والوعظ هو الأمر والنّهي؛ والتّرغيب والتّرهيب، وإذا كان القلب معمورًا بالتّقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم؛ قال حذيفة بن اليمان: إنّ في قلب المؤمن سراجًا يزهر. وفي الحديث الصّحيح: «**إنّ الدّجّال مكتوبٌ بين عينيه كافرٌ يقرؤه**

كلّ مؤمن قارئ وغير قارئ» فدلّ على أنّ المؤمن يتبيّن له ما لا يتبيّن لغيره؛ ولا سيّما في الفتن وينكشف له حال الكذّاب الوضّاع على اللهّ ورسوله؛ فإنّ الدّجّال أكذب خلق اللهّ مع أنّ اللهّ يجري على يديه أمورًا هائلةً ومخاريق مزلزلةً حتّى إنّ من رآه افتتن به فيكشفها اللهّ للمؤمن حتّى يعتقد كذبها وبطلانها. وكلّما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطلها وكلّما ضعف الإيمان ضعف الكشف وذلك مثل السّراج القويّ والسّراج الضّعيف في البيت المظلم)ا.هـ.

وقال ابن القيّم: (فليتأمّل العارف قدر هذا المثل، وليتدبّره حقّ تدبّره، ويزن به نفسه، وينظر أين هو منه؟ ، وباللهّ التّوفيق)ا.هـ.

وقال في موضع آخر: (لا تنفع المواعظ الخارجة إن لم تصادف هذا الواعظ الباطن؛ فمن لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ)ا.هـ.

والمقصود أنّ هذا الواعظ في قلب المؤمن هو تذكير من الله لعبده المؤمن، وهو من أنواع الهدى الذي يأتينا من الله تعالى.

فهذا جَمْلٌ لأهم أنواع البيان الذي هو من هدى الله تعالى؛ وأجلّ أنواعه وأعظمها: البيان الذي تقوم به الحجّة، وهو البيان بالرسل وبالكتب؛ وقد تكفّل الله تعالى بهذا الهدى حتى يتبيّن للناس وتقوم به الحجّة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ

﴿إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

فهذا هو هدى الدلالة والإرشاد ، وهو البيان الذي تقوم به الحجّة، ويستحقّ العقاب من خالفه.

فمن خالف الهدى بعدما تبيّن له فهو على خطر من عقوبتين عظيمتين:

العقوبة الأولى: أن يفتتن بما خالف فيه؛ فتحبّب إليه المعصية وتزيّن في قلبه، ويشرب حبّها؛ فيزداد ضلالاً وزيغاً ويبتعد عن طريق الحقّ بقدر ما اكتسب من إثم المخالفة، أو تسلّط عليه فتنة لا يهتدي فيها لطريق النجاة.

والعقوبة الثانية: أن يعذّب على مخالفته عذاباً أليماً.

وبيان ذلك في قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

فكم من إنسان أقدم على مخالفة الأمر ولم يكن له في تلك المعصية كبير تعلّق، ولو أنّه تركها من أوّل الأمر لكان تركها يسيراً عليه، ولأثيب على تركها لله بأنواع من الثواب.

لكنّه لّما أعرض عن هدى الله وارتكب تلك المعصية افتتن بها، ولم يزل يعاودها حتى تعلّق قلبه بها، وعسر عليه التخلّص منها.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾

هذا تفريع للتنبيه على أن المكلفين سينقسمون في مواقفهم من هذا الهدى إلى موقفين، موقف المتّبع، وموقف المعرض؛ فبدأ بالمتّبع، وبيّن جزاءه، ثم ذكر المعرض المتولّي وبيّن جزاءه.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أعاد ذكر الهدى بالاسم الظاهر دون الضمير مع قربه؛ تعظيماً لشأنه وتنويهاً بظهوره، فلم يقل: (فمن تبعه) ؛ بل ذكره في جواب الشرط بالاسم الظاهر (فمن تبع هداي) وأضاف الهدى إليه إضافة تشريف، وترغيب باتّباعه، فلهذه الإضافة في قلوب المؤمنين المحبين لربهم أثر ظاهر في تعظيم هذا الهدى والثقة به وبحسن عاقبته، ويقطع الأطماع عن ابتغاء هدى أفضل منه؛ فلا أفضل من هدى الله؛ فهي إضافة جليلة تفيد مع التشريف والترغيب معنى الضمان لحسن العاقبة، ومعنى تفضيله على ما سواه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَلَا﴾ الفاء هنا تفيد أن النتيجة سريعة الاقتضاء لمن امتثل شرطها؛ وهي بشرى عاجلة لمن يتّبع الهدى؛ بالسلامة مما يضرّه؛ بأسلوب بياني محكم؛ يسارع بطمأنينته من أوّل ما يقرؤه؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ فقدّم ذكر ما يطمئنهم من الخوف لأنه أعظم ما يخشى ويحذر؛ فكأن النفس بعد أن اطمأنت من خوف ما أمامها؛ قد ترجع بالتذكّر إلى ما مضى؛ من أمور فاتتها أو آلام تبعث الأسى؛ فجاء الشفاء الناجع والدواء الضامن ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

إن الشرور التي يخشاها الإنسان لا تعدو أن تكون شروراً مستقبلية أو ماضية؛ فأمّا شرور المستقبل فيجمعها الخوف؛ فبشّر من يتّبع هدى الله بأن لا خوف عليه.

وأما شرور الماضي فهي التي تبعث على الحزن والأسى؛ فبشّر من يتّبع هدى الله بأن لا يحزن.

- لا خوف عليه؛ لأنه متّبع لوصيّة الله تعالى التي يضمن الله له بها حسن العاقبة، وأن لا يضرّه شيء ما دام متّبعا لهدى الله.

- ولا يحزن؛ لأنّ ما فاته وهو متّبع لهدى الله فسيأتيه خير منه باتّباعه لهدى الله؛ وما أصابه مما يكره فعند الله من الثواب على الصبر عليه ما يذهب عنه الحزن.

وفي قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: «فلا يخافون»؛ فيه لطيفة؛ وهي أنّه قد يخافون لكن لا خوف عليهم؛ بمعنى أنّهم لن يصيبهم ما يضرّهم؛ فكلّ ما يصيبهم فهو خير لهم؛ كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**عجبا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سراء شكر؛ فكان خيرا له، وإنْ أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له**». رواه مسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

وهذا كما يأتي إليك الفَزِع من شيء يخافه فتقول له: لا خوف عليك؛ أي أنت في مأمن مما تخافه؛ فهو وإن كان يخاف حقيقة لكنه لا خوف عليه بمعنى أنه في مأمن مما يخاف لأنّك أمّنته بذلك.

فكذلك المؤمن المتّبع لهدى الله لا خوف عليه؛ لأنه في ضمان الله تعالى له بالنجاة وبحسن العاقبة.

وفي قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ لطيفتان:

إحداهما: العدول عن مقابلة الاسم باسم مثله إلى الفعل؛ فلم يقل: (ولا حزن)، وإنما قال: (ولا هم يحزنون) وهذا فيه دلالة على نفي وقوع الحزن منهم، واختلف في ذلك هل هو على إطلاقه أو مختص بحالهم في الآخرة؟

وعلى القول بأنّه على إطلاقه يكون هذا الوصف مختصاً بأصحاب اليقين؛ لأنّ اليقين بحسن عاقبة من اتّبع هدى الله يُذهب الحزن؛ وهذا اليقين يتفاضل فيه المؤمنون؛ وأكملهم في ذلك حالاً الأنبياء ثم الصديقون، وقد قال الله تعالى عن نبيّه صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر الصديق: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فدفع عنه الحزن بما يقتضيه اليقين بمعيّة الله تعالى الخاصّة.

ولا ينقض هذا وقوع الحزن من بعض المؤمنين لضعف عارض في اليقين؛ فإنّ ضعف اليقين العارض يصاحبه حَزَن عارض؛ ولا يكاد المؤمن يثبت على حال واحدة من كمال اليقين، ولكن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحنظلة: «**والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» رواه مسلم.

وهذا بخلاف الخوف فإنّهم يخافون من عذاب الله وعقابه، وإن كانوا في حقيقة الأمر لا خوف عليهم لأن لهم عهداً ووعداً من الله يأمنون به من العذاب؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

واللطيفة الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ المجيء بالضمير (هم) ليدلّ مفهوم الكلام على وقوع الحزن من غيرهم؛ كما تقول: (ما أنا الخاسر) لتبيّن وجود خاسر لكنه ليس أنت.

وقد ذكر هذه اللطائف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواضع من كتبه وابن عاشور في تحريره.

والمقصود أن السلامة من الشرور وضمان صلاح الحال وحسن العاقبة كلّ ذلك لا يكون إلا باتّباع هدى الله.

ودلّت الآية على أنّ من لم يتّبع هدى الله ؛ فهو عرضة للخوف والحزن.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ فضمن لمن اتّبع هداه أن لا يضلّ عن الصراط المستقيم، ولا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة.

وكلما كان المرء أعظم حظا ونصيبا من هدى الله كان أبعد عن درك الشقاء، وأسلم من شرّته وآثاره، وإنما يلحق المسلم بعض الشقاء لمخالفته هدى الله في بعض أمره؛ فيجد من مغبّة العصيان وألوان الشقاء ما يجد حتى يرجع إلى ربّه ويحسن الإنابة إليه.

فمن أناب إلى الله هداه الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾.

اللهمّ اهدنا بهداك، ومنّ علينا برضاك، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وقنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

١: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق جماعة بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة..

٢: **مجموع الفتاوى**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.

٣: **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن قيّم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، دار عالم الفوائد، السعودية.

٤: **مدارج السالكين**، ابن قيّم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: ناصر السعوي وعلي القرعاوي وصالح التويجري وخالد الغنيم ومحمد الخضيري، دار الصميعي، الرياض، ١٤٣٢هـ.

٥: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ابن قيّم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الرياض.

٦: **روح المعاني**، أبو الثناء محمود بن عبد الله الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٧: **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين بإشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

٨: **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس.

الفهرس

المقدمة	٥
الوصية الأولى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾	٦
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾	٦
تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْهَا﴾	٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾	١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾	١١
أنواع هدى الله	١١
معنى البيان	١١
أنواع بيان الهدى	١٤
أجل أنواع البيان وأعظمها	١٥
عقوبة من خالف الهدى بعدما تبين له	١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾	١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾	١٧
أنواع الشرور التي يخشاها الإنسان	١٧
لطيفتان في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾	١٨
قائمة المراجع	٢٢
الفهرس	٢٤

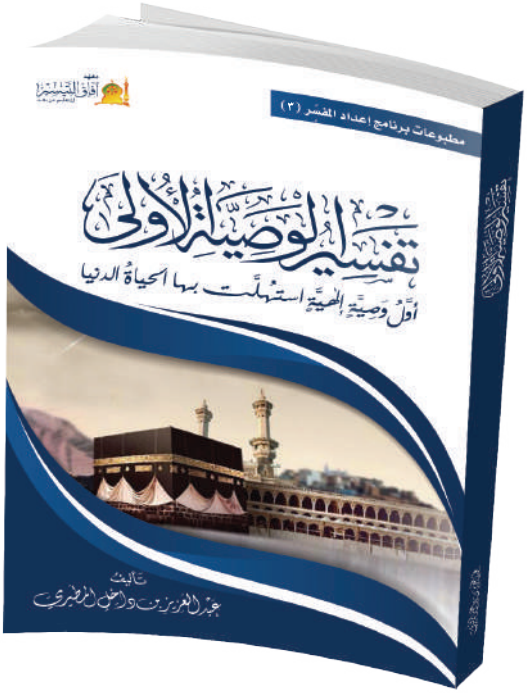

معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد